ماى مدين

بقلم

الدكتور محمد كامل حسين

قضى موسى ليلته فى هذا المأوى الجميل الصغير . ولما طلع عليه الفجر ايقظه من الهواء البارد فقد فيه بعض النشاط وقام من مضجعه فوجد بجانبه قليلا من الحلوى التى د قها بالامس . وقليلا من الشراب الذى جرعه اياه صاحباه وهو لايكاد يعى ما يفعل فأخذ منهما ماشاء ان يأخذ وكان عهده بمثل هذا الشراب فى مصر شيئا مخمرا يتناول الناس منه الكثير يعبونه عبا . وكان يعاف هذه الكثرة وذلك الطعم . وكان يكره الأثر الذى يتركه فى الجسم من امتلاء وفى الراس من خمول . أما هذا الشراب فهو قليل جيد يشفى من الخمول والتعب وطابت نفسه اليه .

وسمع صوتا موسيقيا يأتيه من مكان قريب حيث يقام الصلاة وعرف ان هذا الصوت يخرج من قطع من المعدن مختلفة الاطوال تطرقها العصا فتخرج منها انغام بسيطة تعجب وان لم تطرب. وكان عهده بالموسيقى فى مصر صاخبة عالية تطرب وتهيج وتدفع الى النشوة والرقص والابتذال اما هذه الموسيقى التى لاتعدو ان تكون ايقاعا بدائيا بسيطا فكان فيها حدا وصرامة . وقد لا تكون مما يعجب المترفين . ولكنها على كل حال جميلة طلية . وكان لها من هذا المكان وهذا الوقت وتلك الغابة ما جعل لها عليه أثرا بالغا لم تبلغه من نفسه الفنون العالية فى الجو الكدر .

ولما طلع النهار جلس فى مكانه فوجد أمامه ناقده تطل على الوادى . ورأى اشجارا كثيرة تحمل اثقالا من العاكهة. واعجبته اشجار الزيتون واوراقها الوراقة وجذوعها الملتفة كالتنوين المضموم . ولم يكن يعرفها فى مصر . ورأى زرعا أخضر بهيجا . وعهده بالخضرة فى مصر بشوب جمالها مايعلوها من تراب يذهب ببعض نضرتها . وارتاحت نفسه الى هذا الذى رآه . ولم يعتقد الا الماء الجارى الفسيح كما كان يراه فى خير انهار الدنيا واجملها وفرح لهذا الذى رآه فى يومه الاول . فكل ما رآه يبشره بما كان يحلم به ، حياة هادئة وان تكن صغيرة ، كريمة وان تكن بسيطة ، طيبة وان تكن محدودة . وخيل اليه ان ذلك اشبه بطبيعته من الحياة المرمة القلقة التى عرفها فى قصر فرعون والتى حمعت بين العظمة والشر ، والبهجة والذلة ، واللذة والكدر . والتى لم يذق الا آلامها ولم ينعم بلذاتها ، والتى كانت عليه جحيما والناس يحسبونه فى نعيم يحسد عليه.

وأقبل عليه صاحباه فوجداه فى حال طيبة . وسألهما عن المكان الذى يصدر منه صوت الموسيقى التى سمعها . فقالوا له .

ـ هذا هو المعبد الذى تتصدع فيه

ـ ولكنه صغير جدا لا يتسع لاهل قريتكم مهما تكن صغيرة .

ـ انما يأتيه من يركب طلبا أو يؤدى أحدا . وهؤلاء قليلون . ولا يجتمع فيه اهل القرية الا ايام قليلة كل عام . تقدم القرابين للآلهة . عند ذلك يعفو المظلوم عن الظالم . ويغتفر المسىء الى من اساء اليه . ويتلقى المحسن مظاهر الاحترام والحب مما جميعا .

ـ وهذا كل ما تعرفون من التعبد ؟

وفرح موسى بهذا الحديث . وظن ان حياته المستقبلة ستكون خلوا من مظاهر الظلم والقسر التى آلمته وتغصت عليه حياته كلها وهو فى مصر وكأنما وطن نفسه على أن يعجبه كل ما هو بسيط طيب ولو كان بدائيا .

ثم قدما اليه غداءه . واسترد قوته ونشاطه . وطلب اليهما ان يقوداه هذا الى حقولهم لعله يعمل عملا يجزيهم به على ما قدموا اليه من حسنات .

ولما كان عصر ذلك اليوم صعد الى سوار الهيكل أطفال يلعبون ويمرحون . فلما علا صوتهم خرج اليهم وكان من قبل لا يحتمل صحب الاطفال ولا يطيق لعبهم وأعمل عليهم فرحا بهم كأنه لم ير اطفالا من قبل . وهرعوا اليه فلحد بلاعبهم ويرفعهم الى ما فوق رأسه فى سهولة ،وهم يصيحون ويضحكون . وبلغ سرورهم غايته حين حمل اثنين منهم فى وقت واحد بكلتى يديه .

وجرى الاطفال الى امهاتهم يصيحون

ـ هنا رجل غريب . هو قوى جدا جدا . يحمل اثنين مما فوق رأسه فيلتقى فى الهواء وقال أحدهم فى براءة الاطفال وصراحتهم

ـ ولكنه لا يتكلم كما نتكلم . يتكلم بطيئا جدا . ويقف احيانا عن الكلام حتى نجد له نحن الكلمة التى يريدها وأسرها موسى فى نفسه . وكان هذا العجز يؤلمه أشد الالم . وهاهو فى أول حياته الجديدة لا يستطيع اخفاء عجزه هذا حتى عن الاطفال .

ولما جن الليل نظر من نافذته الضيقة الى الوادى وقد سكن فيه كل شىء حتى خفيف الشجر وصوت النسيم . ورأى امامه الجبال العالية وقد اكسبها نور القمر جمالا خاصا . يصبغها من ناحية ويلقى ظلالها على الارض من الناحية الأخرى ظلالا تطول وتقصر حين تسقط فى الوديان السحيقة او القريبة . ورأى قمم الجبال تحط لنفسها اشكالا جميلة حين تعترض السماء المنيرة . ونهره هذا الجمال الذى لم يكن له به عهد .

وظن موسى ان مثل هذا المكان ومثل هذه الليلة يبشر انه ببدء حياته الجديدة التى يرجو ان تكون حياة هادئة بسيطة والتى يأمل أن تصفو له صفاء يقطع ما بينه وبين ماضيه قطعا باتا .

وما أكثر الذين يحلمون بمثل هذا الأمل حين تشتد بهم الخطوب وحين تضطرب حياتهم وتضل خطاهم. يودون لو يستطيعون ان يبدأوا حياة جديدة تخلو من أخطاء الماضي كلها. ولكنه أمل بعيد المنال. ذلك ان اكثر الناس يحدون أنفسهم وقد أخذ ماضيهم بأعنيتهم يرغمهم على أن يسيروا سيرتهم الاولى. تعلق بهم أخطاؤهم. ويلصق بهم من طباعهم وشخصيتهم ما يدفعهم الى المزلقات القديمة. ولا يقطع ما بين الماضي والمستقبل في حياة الناس الا حادث عنيف جدا. وقد موسى انه وقع له ذلك الامر البات حين هرب من مصر الى هذا المكان البعيد. ولعله ادرك أن مالقيه من ظلم وذل وتعب لم يكن شرا كله. ولعل نفسه أن تكون قد طابت لهذا كله اذا كان ثمنا للحياة الطيبة التي هي كل آماله.

وجاء اليه صاحباه في اليوم التالي. وذهب معهما الى البساتين. ورأى الذين يفلحون الارض بنفوسهم. وأراد ان يعمل كما يعملون. ولكن الفلاحين ضحكوا حين رأوه يضرب الارض بفأسه وتبينوا أنه ليس خبيرا بمثل هذا العمل. وقالوا له ان يديه الناعمتين تدلان على أنه لم يعود الفلاحة. وان وجهه لم تلوحه الشمس كما لوحت وجوههم. وان هناك عملا كثيرا يستطيع ان يقوم به غير الفلاحة.

ولم يفهموا من اصراره على أن يعمل بفأسه. ولم يقدروا انه يريد ان يتصل بالارض اتصالا قويا بدأ من حيث يبدأ اصغر الناس. وانه يريد أن يحترم كل ما كان يحتقر في مصر. لعله أن ينسى به الامر الى احتقار كل ما كان يحترم في شبابه من مجد او غنى أو سلطان. ولعله أراد أن ينسى احترامه للتفكير والعلم والذكاء.

وعلم منهم انهم لا يعرفون كيف يوجهون الماء الى حيث يريدون. وان ماء كثيرا دافقا يذهب الى أسفل الوادي لا يستطيعون ان يحولوه الى حقولهم. فكلما وضعوا في سبيله حاجزا احتمله الماء ووجدهم لا يعرفون ترتيب القنوات. فهم يرهقون رجالهم ونساءهم حين يرغمونهم ان يحملوا لهم الماء من البئر الكبيرة الى الحقول ومنها ما هو بعيد. فلما جاء الى البئر وجدهم يرغمون الدلو بأيديهم وهو ثقيل. وعزم موسى ان يدل هؤلاء البدائيين على ما يخفف أعباء الفلاحة الرهقة وعزم ان يدلهم على طريقة عربية في بناء سد تتجه به مياه السيل الى بساتينهم وان يعلمهم كيف يصنعون عجلة من جذع شجرة فوق البئر تعينهم على رفعه. ولم يشك انهم سيحمدون له عمله حين يقيم لهم ما اراد اقامته. وان ذلك سيجعل له عليهم فضلا يجزيهم به على ابوائهم له وهو عنهم غريب.

وكانت هذه البئر التي لم ينضب ماؤها قط. محور حياة القرية يجتمع حولها رجال ونساء يسقون ويتحدثون. حولها يدور سمرهم في المساء وعملهم بالنهار. ووجد حولها قوما كثيرين يدلون بدلائهم ويترعونها في عسر. ووجد بعيدا عنهم امرأتين معهما اباءهما فارغا وهما تنظران ان يفرغ الناس ثم تحملان اباءهما الثقيل الى منزلهما.

ونظر اليهما فلم يعضا الطرف دونه

وشجعه ذلك على ان يتحدث اليهما . وعلم انهما شقيقان حتى يفرغ الرجال. وانهما وحيدهما يقومان بخدمة ابيهما وهو شيخ كبير . ولما اخذ موسى الاناء وذهب الى البئر وجد رجلين يتعاونان على رفع دلو ثقيل . فتحاهم موسى ورفعه وحده بيديه القويتين . ثم ملأ اناءه والناس يعجبون منه ويتساءلون عن هذا الغريب . ولم يعبأ بذلك النساء القائمات على البئر واللائى لم يخفين اعجابهن به .

ثم ملأ اناء الاخوين وحمله وسار معهما حتى بلغوا دار ابيهما . وتاهت ريفورا واختها الصغرى على نساء القرية أن كانتا موضع عناية موسى . وقالت ريفورا لاختها انى سأحمل امر على ان يخطبنى له . ودهشت الاخت لذلك وقالت لشقيقتها الكبرى . اين حياؤك وابن خفرك وكيف تبدين هذه الرغبة فى رجل غريب . وليس من عاداتنا أن نعلن حبنا للرجال على هذا النحو .

وكان موسى قد رأى من قبل نساء جميلات فاتنات فى ثياب مزركشة فيها الذهب والجواهر الكريمة يخطرن فى سفن جميلة تتهادى فوق سطح الماء على ضوء القمر الذى ينعكس نوره على الماء فكدره الأمواج الصغيرة . وكان هؤلاء النسوة يقلن عليه بردن ان يخلو بهن فأبى ذلك وربأ بنفسه عن لغاتهن . وكان فتيات البادية لا تغريه أما اليوم فهو مشوق الى هؤلاء النسوة راغب فيهن على ماهن عليه من بساطة .

ولما نظر الى ريفورا خجلت منه وسقط ثوبها عن قامته وطوله حولها فى حركة رشيقة فيها حياء واغراء . ورأى موسى فى هذه الحركة جمالا اعجبه وعرف ما يستطيع ان يصوره الثوب من جمال واغراء حين تحاول المرأة الجميلة أن تستر جسمها فلا يزيده ذلك الا فتنة وسحرا . واخذ بقلبه هذا الاغراء البسيط الذى لم يصقله الدرس ولم يهذبه الفن . ولم تشبه شوائب الحضر .

ومع ذلك مر بخاطره فى تلك اللحظة صورة فتاة حبشية كانت تألفه كما ألفه أطفال مدين ويلعب معه كما كانوا يلعبون وكانت تدل عليه كما تدل المرأة الشابة التى جمعت بين الطفولة والاغراء فى ذلك العهد الدقيق الذى تتحول فيه الطفلة الى فتاة . ولم يلبث ذلك الا خاطرا عابرا لم يعره موسى اهتماما كثيرا .

ولما هممت ريفورا أن تخبر اباها برغبتها أن تخطب الى موسى ارادت اختها الصغرى أن تحول بينها وبين ذلك بذراعها النحيل . فانتزعتها ريفورا نزعا عنيفا تألم له اختها الما شديدا . وأوجع ذلك ريفورا فاعتذرت لاختها وطيبت خاطرها . ولكن الذراع ظل يؤلم الاخت زمنا طويلا .

واقام موسى لأهل مدين سدا يحجز الماء وعلمهم سر المجلات والنواعير . واصبح موضع احترام أهل مدين واخوه حبا جما . واستنصحوه فى كل ما يعرض لهم . واصبح فيهم سيدا مطاعا محبوبا وخطب ريفورا الى موسى ورغبت اليه وكان يوم فرح عام شمل أهل القرية جميعا وسعد موسى غاية

السعادة واستقامت حياته بعد ان اضطربت اضطرابا مرعبا منذ اول عهده بالحياة واعجبه ان يعيش هذه العيشة الهادئة الصغيرة . ولم يكن يظن انه سيحظى بمثلها أبدا .

وبينما هو في بستانه يوما حادثته اخت امرأته وهي لا تزال تشكو الم ذراعها وقالت له .

— يخيل الي يا موسى ان اراك سعيدا غاية السعادة في حياتك هذه بيننا .

— ولم لا اكون سعيدا وقد عرفت عيشكم الحب والعطف والهدوء والاطمئنان ولم اكن ارغب في غير ذلك حين كانت الحياة حولي صاخبة عظيمة .

— ولا اشك ان ريفورا وهبتك من الحب كل ما ترغب فيه . وكنا نظن ان فيها طيبة نفس وهدوءا وحكمة .

ولكنا كنا نحسب أن في طبعها برودا . وان عينيها لا تشعان الشوق والرغبة . وهما عنصران من عناصر الحب . بل هي لا تعرف شيئا عما يسميه الناس غراما .

— ويخيل منها هذا فانا لم اكن من رجال الحب . ولا من اهل الغرام الذي يبذله به الناس . وحبها هذا الهادىء هو كل ما ارغب فيه .

— وهي لاتغار عليك . والغيرة عندنا نحن النساء شيء لا يتم الحب بدونه . ولو رأتني بين ذراعيك الآن ما حملت بذلك — ولا عطفت عليه .

— ويرضيني منها ذلك فالغيرة داء المحبين — وهي اكثر ما تكون شرا حين لا تكون الا خيالا لا حقيقة له ونظر اليها موسى مجاة وكانه — على جهله بعواطف النساء — فهم ان كلامها له خبيء وانها تكتم حبا عنيفا علمتها عليه أختها الكبرى دون أن تكون أهلا لهذا الحب — وفطن الى أنها تعزيه بشيء لا يقبله لنفسه أبدا — ونظر كل منهما في عيني الآخر فكان في عينيه دهشة واستنكار واباء — وفي عينيها بريق ساطع يشف عن وشل يكاد يذرف دمعا . وكانها تلومه التهاما وعاله ما رأى من شدة رغبتها اليه رغبة تختلف عن الرغبة التي رآها من قبل عند المبتذلات في قصر فرعون تلك كانت رغبات جسمية حارقة اما هذه الرغبة فكانت جسمية قلبية معا . ولعله لو كان مرهف الحس ملهب العاطفة ما استطاع أن يقاوم جمال هذا الحب العارم . ولكنه كان غافلا حازما شديد الحرص على ما كان يعتقده واجبا خلقيا فكان ان كاد يعرض عنها . ثم دارت بهما الارض فارتمت عليه معشا عليها . وحملها موسى بين ذراعيه القويتين . فسرت في جسمها نشوة جميلة كاجمل ما تكون النشوة وذابت نفسها لهذا الذي اعتراها — وطوقت رقبته بيديها وكانت يدها اليمنى من قبل لا تتحرك الا قليلا . وحملها موسى وهو قلق اشد القلق ان يكون اغماؤها تدبيرا بشر به صبيها — وكانت هي تقدر ان هذا الاغماء فرصتها التي تستطيع أن تصنع فيها بما لا تقدر عليه وهي واعية . وان العرف والاخلاق تحولها ماهي فيه من نشوة خفية آثمة لو صارحت الناس بها لاحتقروها . وهي الآن تلذها ما هي فيه دون أن يعلم احد عنها شيئا بشيئها بل هم يحاورونها على انهما هذا بالعطف مادامت ناقدة الوعي .

وحـاولت أختها الكبرى تلهيث حين علمت ما حدث لأختها . وحنت عليهـا حنوا صادقا . وقدرت الصغرى هذا العطف وحرصت الا تكون هي ايضـا بريئة مثل ريفورا ولما أرادت ريفورا حين افاقت أختها أن تمتحن وراعهـا اليمنى فاجأتها هذه بصرخة من يـدها هذه كانها تقول لا تفرحي بنصرك على فانى سليمة . وكان فرح ريفورا عظيما أن رأت أختها وقد شفى ذراعها تماما.

واضطربت نفس موسى لهذا الحادث اضطرابا شديدا حين علم أن فى كل بيئة طاهرة او عابثة اعماقا للنفس لا قبل لأحـد مهما ظهر أن يتغلب عليها الا ظاهرا .

* * *

لم يكن موسى يعرف النسـاء على كثرة من لقى منهن . فلم يكن يقدر ما يخفين ولا نفسـه كثيرا مما يظهرن ولم يكن بين طبيعـة وطبيعتهن تجاوب عاطفى داخلى تلقائى . على حين أن اكثر النـاس ممن هم اقل منه ذكاء وفهما يدركون الشىء الكثير مما كان يفوته من طبائع النساء .

فلما رأى ريفورا عند البئر اطمأنت نفسـه اليها . وعـرف انها طلبته . ورغب اليهـا — بطلبه وعقله دون أن يكون غرامه بها طاغية عنيفة . وأقبلت هى عليه بكل جوارحها على أنه أمل لم تكن تحلم أن يتحقق لها على هذا النحو .

وكان هو اعقل الناس واكثـرهم حكمة ، واخلصهم نفسا . وكانت هى اطيب الناس وأرقهم قلبا . واكثرهم ولاء لمن تحب . وأحب كل منهما الآخر كاشد ما تسمح له طبيعته واسلوبه فى الحب .

ووجد كل منهما فى رفيقه ضالته وامانيه . وجد فيها ما لم يجـده فى غيرها من النسـاء اللاتى لقيهن فى مصر . وقدر لها عطفها البالغ عليه . وكان فى أشد الحاجة الى هذا العطف. ووجدت فيه ما اعجبهـا قوة وامانة وذكاء وشدة عزم . فكانت هى محققة لآماله كلها . وكان هو محققـا لآمالها كلها .

ومع ذلك دب بينهما خلاف لم يفهما له سببا . ولم يكن هناك شك ان كلا منهما يحب الآخر ولم يكن هناك شك فى ان كليهما بعيد عن أن يوصـف بالحمق . ولم يكن أحدهما ملولا ولا عابثا .

ولم يمض الا وقت قليـل حتى اصبح حديث الحب بينهما حديثا عجبا يبدأ هادئا رقيقا ثم يتحول رويدا رويدا فاذا به يسير الى الضيق والضجر . ثم يشتد ذلك ويثير الاستياء ثم الـلام ثم الغضب . وهما لا يريدان من ذلك شيئا . بل يظن كل منهما انه انما يسىء للآخر حبه على النحو الذى يراه . وان رفيقه محطىء حين لا يقدر العـاطفة القوية التى تحمل الآخر على هـذا الحديث .

وأخذت تسأله كثيرا عن ماضيه .

— حدثنى عن حياتك الضـاحكة فى قصر فرعون . وعن مغامراتك فيه — الم تكن عندكم ألوان شتى من النساء العابثات اللاتى اتقى الامراء حتى لتتع

في حياتهن أعظم الرجال ... واكثرهم وهدا فيهن . وكيف كان حالك مع هؤلاء

ـ لم تكن لي معهن مغامرات .

ـ وكيف يكون ذلك ؟ ألست رجلا كالرجال وهن نساء كالنساء ؟ . واي عيب عليك لو اغترفت مما فعلت بهن وما فعلن بك ؟

ـ ولكني لم افعل شيئا .

ـ وهل انت وحدك بين الرجال تتأبى عليهن ؟ هذا غير طبيعي .

ـ وانا لست طبيعيا .

ـ انك تتعبني ما لا داعي لاتعابه . فالرجال كلهم سواء في شأنهم مع النساء وكلهم يحتقرون وراءهن حيث يجدونهن . فما الذي يحملك على انكار ماضيك فتجعل بيني وبينك حجابا . الا تعلم انه لا يتم الحب بين اثنين حتى يكون كل منهما عالما بكل ما في حياة الآخر .

ـ لا اريد ان احجب عنك شيئا انما اريد ان اقيم حجابا بين حياتي الحاضرة وحياتي الماضية .

ـ لا افهم لذلك سببا الا ان يكون ماضيك مثقلا بما لا تستطيع ان تعترف به .

ـ لعله مثقل بما لا احب ان اذكره ولو كان خيرا .

ـ معميات لا افهمها . وخير لنا ان نعمل على ان تشرحها لي حتى لا يكون بيننا حجاب من شك او جهل .

ـ فاذا كنت انا لا افهم حياتي الماضية . فكيف اشرحها لغيري ؟

ويمضي الحديث بينهما على هذا النحو ... يبدأ عذبا رشيقا شائقا في دوافعه واسلوبه . ثم ينتهي مريرا مؤلما .

وكان موسى لا يدري سببا يحملها على هذا اللون من الحديث . ولم يفهم سر اصرارها عليه مع ما هو واضح من ضجره به . ولم يفهم انه قد يرضيها ان تكون قد أعجبت رجلا خبيرا بالنساء عرف الكثيرات فضلها عليهن . وانه لا يرضيها ان يكون قد احبها عن جهل او عن ضرورة حين لم يجد امامه عنها بديلا . ولم يكن يدري ان بحثها عن فتنة الحياة في مصر قد يكون مصدره الرغبة في ان يعرف ما يحبه وما لا يحبه من مفاتن النساء وكانت تظن فاتنات مصر طفن العالم في الاغراء فلعلها تحب ان تتشبه بهن او ان تختلف عنهن حتى تكون اغراؤها له خاصا بها .

ولعله ان يكون مصدر الخلاف بينهما انه كان يحجب منها ما لا يحجبها من نفسها . ولعلها كانت تود ان يحجب بغتتها واعترافها اكثر من اعجابه بطيبة قلبها واخلاصها . ولعله كان يود ان تحجب غير قوته وامانته . اذا كان هذا حقا مصدرا للخلاف بينهما فهو دليل على قوة شخصية كل منهما قوة تأبى ان تلين للآخر مهما يكن حبهما قويا خالصا

كان موسى رجلا كاملا ليس فيه ذلك القدر الصغير من الأنوثة الذي يجعله يفهم النساء بقلبه لا بعقله وحده

وكانت ريفورا امراة كاملة ليس فيها ذلك القدر الصغير من الرجولة الذى يجعلها تفهم الرجال بعقلها لا بعواطفها وحدها ذلك أن فهم الرجال النساء بالعقل وحده محال . وفهم النساء الرجال بالعواطف وحدها محال .

وهكذا لم يفهم موسى شيئا مما تصو اليه نفر ريفورا وهى أعز الناس عليه . كما لم تفهم هى ما يؤلمه من حديثها وهو أعز الناس عليها .

واكثر الذنب فى هذا الخلاف يقع على موسى من غير شك . اذ كان لايفهم وعية النساء أن يؤكد الرجال لهن انهم لا يزالون يحبونهن مهما يكن ذلك واضحا . وكان لا يفهم ان اتهامها له بالباطل انه يتقرب الى النساء عندما تتاح له فرصة لذلك وانه كان فى مصر

ير نساء لم تكن حماقة منها ولم يكن لعيرتها من هؤلاء النسوة . بل كان ذلك رعشة منها فى الاحساس بالنصر ، بل لعله نوع من النخوة تقدمه المراة لأعز عزيز عليها كأنها تقول له ان كل امراة عرفتك لابد لها من ان تحبك .

أساء موسى فهم ذلك كله . وضجر باحاديثها حين كانت تتحدث فى مثل هذه الامور . وكان ذلك كثيرا . فهى لا ترى ما يمنعه ان تتحدث عن الماضى كما يتحدث الناس جميعا . وكانت تحمل سبب الم حين تذكره بماضيه ولم يكن فى هذا الماضى ما يعيبه . ولكنه كان حريصا الا يذكره ابدا . يريد بذلك ان يقطع ما بينه وبين حياته الاولى . وكان حديثها عن مغامراته يكره جروحا قديمة كادت تندمل ، جروح الاخفاق التام الذى أصيب به

من جراء عناده واصراره على الا يعيش عيشة أقرانه . كان يشعر من اللائى يتقربن اليه لما فى تقربهم من ابتذال يقرب من القذارة . ولم يعرف كيف يتقرب الى الربيات اللائى يتمنعن عن الابتذال جهلا منه بالاشارات الخفية والرعيات الحفية التى لا تزيد على نظرة عابرة او شبه ابتسامة وهو كل ما تستطيع ان تفعله الخفرات . بل كان هذا موقفه من الحياة كلها لا يقبل على ما يباح له منها . ولا يعرف كيف يبلع منها ما يوافق طعمه الأبى .

يقول علماء الطبيعيات ان الانسان — فى ظروف تجريبية يعينها له يستطيع اذا انتبلت يده بالماء ان يقبض على الجمرة المشتعلة فلا تحترق يده بنارها . ذلك انه يكون بين الجمرة والد طبقة رقيقة من البخار وتمنع أن يصيبها حر النار . ويقولون ان الذين يسيرون حفاة على النار يعبدون من هذه الظاهرة الطبيعية .

وكذلك يحدث أن يكون هناك قوم يعيشون عيشة صاخبة عنيفة يحتمون فيها بألوان من السرور واللذة القوية خاصمين لعواطفهم الناضجة ورغباتهم العارمة تعتورهم شهواتهم الجامحة من من حب اللذات والغنى والسلطان . ثم يكون بينهم افراد لا يحترقون بهذه النار . ولا يشعرون شعورا حادا بمحيطهم كأنهم فى معزل عن لذات الحياة وهم فى اوسط معمعتها ولا يكون ذلك لنقص فى احساسهم ولكنها هذه الطبقة العازلة التى تحميهم شر الجموح والشطط فى ما يتمتع به الناس .

وكان موسى من هذا الصنف من الناس وكان يعرف ذلك من نفسه . وكان يحسب ان هذا من آثار جيناته المصطرية . ولم يقدر ان ذلك طبع فيه لا تستطيع حوادث الحياة أن تغير منه شيئا .

وكانت هذه الطبقة العازلة بين نفسه وبين الحياة الصاخبة من حوله هى الاباء . كان يأبى كثيرا مما يقبل الناس عليه متلهفين . ودفع ثمن هذا الاباء غاليا حيث حرم نفسه كثيرا مما هو طبيعى فى الشباب وليس كل ما فى الشباب شرا . وترك فيه الحرمان أثرا بالغا .

لم تكن له طفولة . ولم يكن له شباب . وها هو فى كهولته يقدر ان ذلك كان خطأ منه . وانه أسرف على نفسه بهذا الاباء والترفع لغير ما غاية يراها . وان الارتفاع عن العواطف الانسانية قد يكون محمودا فى عهد الحكمة والوقار . ولكنه حين يكون فى الشباب قد يحرمهم كثيرا من مقومات الحياة الطبيعية .

ولكن الله أراد له ذلك . واعده اعدادا عليما ليلقى عن قريب الوحى والحكمة . واذا كان قد علم انه أحقق رجلا فسيكون بعد قليل رسولا نبيا .